قوة الجبر

نبيلة عبدالباسط

إذا اعطيتكم دقيقة تتخيلون فيها أنفسكم تمتلكون قوةً خارقةً فأي قوة تتمنّون أن تمتلكونها؟

سؤال سأله المدرّب في إحدى الدورات التحفيزية للشباب، فأجاب شابٌ وقال: أتمنى أن أمتلك قوة الذكاء الخارق؛ أن استطيع فك أي شفرة مهما كانت صعوبتها وأستطيع حل أي مسألة في ثوانٍ معدودة. جلس الشاب وهو يسمع تصفيق الشباب له وتعليق المدرّب عليه. قامت فتاة أخرى وقالت: أتمنى أن امتلك قوة الطيران؛ أن أستطيع أن تحلق في السماء وأستكشف العالم كُله ازور كل البلاد، وجلست وكالشاب الأول سمعت تصفيقهم لها وتعليق المدرّب عليها.

قامت فتاة ثانية وقالت: أتمنى أن أمتلك قوة الجبر؛ أن اعبر إلى ثنايا القلوب وفي يدي شريطٌ لاصق أطبب به الجروح التي لا يشعر بها أحدٌ سوى صاحبها، أن أكون اليد التي رُبّت على قلبه الباكي ليلاً، أن أجبر بخاطر كُل جريح وكُل من ليس له صديقٌ ولا حبيبٌ ولا أنيسٌ يُداوي جرحه ويؤنس

وحدته، سكتت الفتاة وسكت جميع من في القاعة -عداه- معظم الشباب لم يفهموا ما تُعنيه ومَن فهم سأل بسخرية وما الذي تستفاد منه لشخصها وهي تريد مساعدة الجميع! ولكنه فهم، الوحيد الذي فهم، قام من مكانه وصفّق إليها بشدّة وتَبعه بعضٌ من الشباب، جلست "ليلى" وهي محرجةٌ وشعرت بأنها تمادت في الكلام وأن ما تتمناه وتكتبه ليلاً مذكّراتها يجب أن يظلّ في مذكّراتها هي فقط...

خرجت ليلى وهي حزينة وتفكّر لماذا سخروا منها ومن أفكارها؟! سمعت نداءً من خلفها..

-يا آنسة، يا آنسة

نعم أيُ خدمة؟

-يقول الشابُّ لاهثًا: لقد كُنت أنادي عليكِ ولكنّك لم اسمعيني

نعم آسفة كُنت شاردةً قليلاً، ماذا تريد؟

-أنا "سليم" كُنتُ جالساً خلفك بالداخل، وكلامك أعجبني لكن ليس لصحّته بل لاختلاف تفكيرك وكأنكِ تنظرين للعالم بزاويةٍ غير التي ننظر بها!

تفاجأت ليلى وسَعدت كثيرًا وفهمت أنه هو من قام بالتصفيق لها عندما سكت

الجميع.

أشكرك، ولكن لماذا تقول إن تلك الأفكار ليست صحيحة؟

فأنا بالفعل أتمنى أن استطيع أن أجبر بخاطر كُل مكسورٍ وأُداوي جرحه اعلم انني لا استطيع أن أفعل هذا مع الجميع ولكن يكفيني مساعدة شخص واحد على الأقل.

-أنا لا أصدق أن هناك أشخاص يحبون مساعدة الآخرين دون أدنى مقابل!

"لاحظت ليلى تلعثم كلماته وبطء خروج حروفه من مكانها"

ومن قال أنني لا آخذ مقابل؟ لسعادة الناس وخفّة روحهم بعد أن كانت مُثقلة بالهموم ونجحتُ في إزاحتها هو أكبر مقابل بالنسبةِ إليّ.

نظر إليها سليم مُنبهرًا وقال لها: أمِن الممكن أن نصبح أصدقاء؟

ابتسمت ليلى وقالت: بالتأكيد، أنت من الآن صديقي.

جلسا في مكانٍ هادئ وأخذا يتحدثان في مواضيع شتى.

قالت ليلى: حدثني عن نفسك، حياتك، أصدقائك.

-أنا ليس لديّ أصدقاء، كما ترين بالكلمات تخرج بصعوبة من فمي ولهذا

يبتعدون عني أو أنا من أبتعد لكثرة ضحكهم واستخفافهم بطريقة حديثي.

أولدت هكذا؟؟

-في الحقيقة لا، لقد كنت طفلاً عاديًا ولكن وانا في التاسعة من عُمري انفصل والداي وعشت مشتتًا بينهما، أبي تزوج وبعده بفترة تزوجت امي أيضًا، كنتُ محطمًا ولم يلتفتا إلي وكأنني لست بابنهما! كنت أعيش مع جدتي، أصبحت منطويًا على نفسي وقلما أتحدث مع احد، في تلك الفترة كنت وحيدًا بكل ما تحمله الكلمة من معنى، حتى رسبت في تلك السنة في المدرسة، انتبهوا إليّ قليلاً حينها واكتشفوا أن لساني أصبح ثقيلاً لعدم تحريكه منذ زمن، حاولوا معالجتي وقال الأطباء أن هناك أمل في الشفاء ولكن إن تحسّنت نفسية المريض وإن أراد هو ذلك، والغريب أنني لم ارد هذا، فضُلت العزلة وأصبح التلعثم ملازمًا كلماتي!

قالت ليلى في تأثر: شفاك الله وعافاك، أنا أفهمك وأقدر ما مررت به وأرى في عينيك قلبًا مشرقًا ينتظر من يُزيح الستار عنه ليضيء الكون بأكمله

-ابتسم سليم ناظرًا إليها قائلاً لنفسه: لأول مرة أشعر أن قلبي حيّ

-قال بصوت سمعته هي: لأول مرة يستمع إليّ أحدٌ دون أن يمل من حديثي المتلعثم او يقاطعني.

ابتسمت ليلى وقالت له: أنا هنا لأسمعك، والآن أكمل حديثك كيف هي علاقتك بوالديك حاليًا؟

-تلاشت ابتسامته من على وجهه وتغيرت معالمه ثم استأذنها وتركها وذهب!.

في يومٍ آخر، تقابلا في نفس مكانهما وأخذا يتحدثان عن هوايتهما وأخبرته أنها تحب الرسم جدًّا وهو أخبرها أنه يحب الكتابة وأنها كانت ملاذه الوحيد، وتحدثا عن أكلتهما المفضلة وأي أنواع أفلام يحبونها، حتى سألها سليم قائلاً: ألن تسأليني عن علاقتي بوالداي ثانية؟

لا أحب أن أثقل عليك وأُجبرك على قول ما لا تريد.

-ولكني أريدُ أن احكي الآن..

كُلي آذانٌ صاغية.

- أخبرتكِ قبلاً بأني كنت أعيش مع جدّتي، وفي كل عطلةٍ صيفية كنت أذهب إليهما أسبوع عند أمي وأسبوع عند أبي، فكان نصيبي منهما أسبوعين في السنة وكل فترة يسألان عليّ في الهاتف فقط، فكبرت وأنا لا أعرف شيئًا عنهما تقريبًا، ومن خمس سنوات توفيت جدتي -رحمها الله- وأنا في السابعة عشرة، صرت أعيش في البيت وحدي، ولم يعرضا عليّ أن أعيش معهما

حتى، فكانا يراني أنني كبرت وأستطيع الاعتماد على نفسي، أبي الذي لمّح لي بأنه يريدني أن أعيش معه ولكن كما ترى زوجتي لديها بنات كبار ولا يصح أن تعيش معهم في بيتٍ واحد فرددت أن لا تشغل بالك بي فأنا بخير، وكأنه كان ينتظر تلك الكلمات فحيّاني وذهب وكل شهر يرسل إلي مبلغًا من المال لأصرف على نفسي وأكمل تعليمي.

وكيف هي علاقتك بأخوتك أبعيدٌ عنهم أيضًا أم هناك تواصل بينكم؟

في الحقيقة هناك أختٌ لي من أمي تصغرني بعشرة أعوام تتصل بي باستمرار وتخبرني أنها تحبّني كثيرًا وتترجّاني أن -تقضي معي إجازتها كل أسبوع.

حسنًا هذا جميل.. أتأتي إليك؟

-لا

لماذا؟

-أناالذي أرفض، لا تنظري إلي هكذا أنا عشت حياتي وحيدًا لن أستطع أن أفتح لها ذراعي عندما تأتي وأقول لها هيا بنا نلعب، لا تفهمين أنا حُرمت من الحنان والحُب أنا فارغٌ من الداخل، وأؤمن بمقولة: "فاقد الشيء لا

يعطيه" وأنا فاقد لكل معاني الحُبّ فكيف سأعطيه لها وأشعرها به؟

أنت لست فارغًا أنت مليءٌ بالجمال لكنّك تلجمه إن حاول الظهور، اتركه يرى الجانب المضيء في الحياة يرى الأشخاص الذين يُحبّونه لشخصه، وأنت من بيديك الحل.

-كيف ذلك؟

فجاه تذكرت ليلى شيئًا: ألم يتفق مجموعة من الشباب اليوم أنهم سيزورون القائد الذي يعطينا الدورة بسبب الحادث الذى حدث له، سنذهب معهم وتلك فرصة للتعرف عليهم والاختلاط بهم.

ولكنك تعلمين أنني لا أحب التحدّث كثيرًا فيلاحظون تلعثمي في الكلام ويتنمرون -عليّ.

لن يحدث هذا، ألم تحضر عندما تحدّث القائد عن هذا الموضوع وأنه ليس عيبًا على الإطلاق وسأل يومها إن كان أحد به تلك الصفة وبالفعل قام شابٌ وقال أنه وُلد هكذا أي أن فرصته في الشفاء معدومة عكسك تمامًا يومها تحدث كثيرًا واستمعنا إليه حتى انتهى، وقام الكل بمدحه والثناء على شجاعته، لا تخف وتعال معي، لأجل خاطري.

وبالفعل وافق سليم وذهبوا جميعًا إلي القائد.

قالت ليلى: حمدًا لله علي سلامتك

قال سليم: حمدًا لله علي سلامتك.. وتلعثم كالعادة

نظر إلى ليلى فابتسمت له وطبطبت على يده خفيةً فابتسم لها

مرّت الزيارة بسلام وسط ضحكاتهم وحديثهم وتعاملهم معه دون أي نظرة شفقة أو تنمر بل أصبحوا أصدقاء وتبادل هو واثنين أرقام بعضهم وكانت ليلى سعيدة جدًّا لذلك التغير البسيط.

مرّت الأيام واتفقا أن يخرجا سويًا، كانا جالسين يتحاوران عندما جاء طفلٌ ووقف عند سليم وضحك له ثم وضع يديه المتّسخه على بنطاله، نظر إليه سليم ثم قطّب حاجبيه وقال له: ابتعد يا صغير واذهب لأمك

تدلّت شفاة الطفل وكان على وشك البكاء

نظرت ليلى لسليم وقالت له: بلطفٍ يا سليم بلطف.

نظر سليم للطفل ثم أخرج ثلاثة جنيهات كانوا في جيبه ثم ابتسم له وأعطاه إياهم ولعب في شعره.

ابتسم الطفل بسعادة وجرى بسرعة وهو يهتف: سأشتري كيس الحلوى الذى أريده

ضحك سليم عليه ثم نظر إلى ليلى بامتنان فابتسمت له

وخطرت ببالها فكرة، نظرت إليه وقالت: هل انت متفرّغ يوم الجمعة؟

-نعم، ولكن لماذا؟

سنذهب إلى مكانٍ ما، سأجعلها مفاجأة لك

-لا أحب المفاجآت.

سأراك يوم الجمعة إلى اللقاء.

ضحك سليم مستسلمًا.

يوم الجمعة...

نزلا كلاً من ليلى وسليم من السيارة أمام ملجأ للأطفال.

نظر إليها سليم مستفهمًا! فابتسمت له وأخرجت كيس ألعاب كبير من السيارة وقالت له: أنا آتي إلى هنا كُل شهرٍ لأزورهم وألعب معهم بالألعاب إنهم يحبونني جدًّا يا سليم وإن نظرت في أعينهم ترى قلوبهم ترقص فرحةً،

ستسعد كثيرًا وستجد نفسك معهم أنا أعدك، خذ ذلك الكيس وفرّق ما به من ألعاب عليه.

نظر إليها سليم وهو عاجزٌ عن الرد! قال لها: لماذا تفعلين كُل هذا معي؟

ارتبكت ليلى وقالت: لأننا أصدقاء وأريد أن أساعدك.

-حسنًا، لندخل.

دخلا بالفعل، وعندما رآها الأطفال جروا عليها واحتضنوها ضاحكين، ضحكت ليلى وقالت: لحظة لحظة لست قادمة وحدي تلك المرة، هذا سليم صديقي وأراد أن يأتي اليوم ليراكم ويلعب معكم، فرح الأطفال وجروا ناحيته وسلّموا عليه وأخذوا يسألوه عن الألعاب التي في يديه.

كان سليم مازال خائفًا لا يعلمض

هل سيستطيع أن يندمج معهم أم لا، نظر إلى ليلى وجدها تُخرج الألعاب وتركّبها والأطفال حولها ضاحكين، نظرت إليه وشجّعته بإيماءة من رأسها، بدأ بالفعل يخرج الألعاب هو أيضًا ويلعب معهم، كان حذرًا في البداية ولكن بمرور الوقت لم يشعر بنفسه وهو يذوب معهم ويركبون على ظهره فيأخذ واحدًا منهم ويدغدغه وتعلو أصوات ضحكاتهم في المكان،

وقفت ليلى تنظر إليهم من بعيد مُبتسمة فرفع نظره إليها فالتقت أعينهما فكأنها تقول له ألم أقل لك؟

في نهاية اليوم وعندما خرجا نظر إليها قائلاً: لا أصدق أنني فعلت هذا!

أنا كنت أعلم أنك ستفعلها، الآن أصبح لديك أصدقاء وبإمكانك أن تتصل بأختك وتجعلها تأتي إليك، أرأيت أنك لست فارغًا وأنك تستطيع منح الحب والحنان للجميع، ثم سألته ضاحكةً: أما زلت مؤمنًا بأن فاقد الشيء لا يعطيه؟

قال: أنا لست مؤمنًا بشيءٍ سوى عينيكِ.

قالت ليلى بتلعثم: سليم! لقد نطقت جملةً بدون تلعثمٍ واحد!

- لا تُغيري الموضوع.. أُحبُّكِ يا ليلى.

***